رجال غيروا وجه التاريخ الإنسانى

صفوة النابهين

(أرطبون العرب)..

تألق الذكاء والدهاء وسعة الحيلة

• عمرو بن العاص •

obeikandl.com

obeikandl.com

فى ذلك اليوم، وحين أسفر الصبح، وقبل أن يرتفع الضحى، كان أمير المؤمنين عمر بن الخطاب فى مجلسه، حين رأى عمرو بن العاص مقبلا فى خطوات ثابتة، رافعا رأسه بشموخ، ترتسم عٰلى وجهه ملامح ثقة بالنفس وهدوء، تعبر عن زهوه بسمته وسماته، دون كبرياء أو غرور.. ويبتسم الفاروق عمر لطريقته فى المشى قائلا: "ما ينبغى لأبى عبد الله أن يمشى على الأرض إلا أميرا ".. وفى هذه الواقعة مفتاح شخصية ابن العاص.. حب الإمارة، أو المطبوعين على الزعامة..

رجل خلق للإمارة، أو ابتلى بحب الإمارة، وقد اختلفت حوله الأحكام والآراء والأقاويل، وشاعت فيما بعد الشوائع، بالشبهات والظنون، ولكن لم تثبت عليه كلمة، ولا فعلة، تنقض تصديقه بدينه، ورعايته لفروضه وشعائره، ومنذ أن وضع يمينه فى يمين رسول الله ﷺ مبايعا، يستجيب له كل فى كل ما يدعو إليه، مجاهدا فى سبيل الله، حتى ملأ قلوب الناس عجبا وإعجابا، فقد كان سباقا لاقتحام الخطر قائلا غير مرة "عليكم بكل مزلقة مهلكة".. كان أسرعهم إلى الحرب، وأكراههم للقعود.. ورغم أنه كان ثالث ثلاثة اشتهروا بعنف وشدة مقاومتهم لدعوة الإسلام، ومنذ أن كان التاريخ فى ذلك الوقت شاهدا على إيذاء المستضعفين من المسلمين فى مكة مع بداية التبشير بدعوة التوحيد، إلا أنه لم يشتد فى شىء بعد إسلامه كما اشتد فى مناصرة دين الله..

....

....

وتاريخ عمرو بن العاص، وتواريخ النابهين من أصحاب رسول الله ﷺ، لا يحتاج إلى مزيد من التفصيل، وإنما يحتاج إلى تصحيح الموازين، وبيان المداخل التى تؤتى من قبلها أحكام الناس على الحوادث والوقائع والمشاهد.. وهذه المداخل تبدأ من مفتاح الشخصية، أو من خبيئة الطبيعة الإنسانية، ومهما كتب المادحون أو القادحون.. والصحابى الجليل عمرو بن العاص، وإن كان الاتفاق عاما حول تألق الذكاء والدهاء والجرأة وسعة الحيلة، فإن دهاء العقل عنده كان مشبعا بالقوة الحيوية، وبالرغبة فى أن ينال أقصى ما يريد، وأن يحصد من المنافع بقدر ما يعطى، وهذه دخيلة من دخائل النفس البشرية متكررة فى كل جيل، وهى ليست من نقائص النفس البشرية، ولكنها الجرأة فى الفوز بالهدف والغاية مع صدق النوايا، فما بالك لو كان الهدف والغاية هو العفو الإلهى، وثواب الآخرة، والتحرر من ذنوب الجاهلية.. وهذا ما حدث فى مشهد إسلامه وكان كاشفا عن بعض جوانب شخصية عمرو بن العاص.. وقتئذ التقى خالد بن الوليد وقال له: "ما رأيك، قد استقام المنسم، والرجل نبى".. وبعدها اتجها معا لمبايعة الرسول ﷺ، وتقدم خالد فبايع.. ثم تقدم عمرو بن العاص فقال: يا رسول الله إنى أبايعك على أن يغفر الله لى ما تقدم من ذنبى.. فأجابه الرسول عليه الصلاة والسلام: يا عمرو.. بايع فإن الإسلام يجب ما كان قبله..

ولم يكن عمرو بن العاص طارحا شرطا أو متحدثا برؤية من يعطى ويأخذ، أو البحث عن مقابل ـ حاشا لله ـ ولكنه كان مدركا لثقل ذنوب الجاهلية، ومؤمنا بصدق الرسالة وصدق معلم البشرية وخاتم الأنبياء، فأراد أن يتيقن من سبل التحرر من ذنوب ومعاصى، وأن يدخل الإسلام وصفحته بيضاء، ناصعة البياض. وهو إذا لم يكن من السابقين إلى

الإسلام، فقد جاء إسلامه متأخرا عن يقين وبأحكام منطق العقل من رجل حاد الذكاء، وهو من اختاره قومه للذهاب إلى الحبشة محملا بالهدايا ليوغر صدر "النجاشى" بدهائه وسعة حيلته، ضد المسلمين من المهاجرين، حتى يخرجهم من بلاده، ولكن عاهل الحبشة "النجاشى "يلقى بمفاجأته الحاسمة، برد الهدايا، وأن يقيم المهاجرون فى أرضه، وتحت حمايته.. وفشلت المكيدة، ولكن "عمرو" وهو عميق الرؤية، قد استوقفته بشائر التفاهم بين النجاشى و"أتباع محمد" ووجد نفسه يطيل التفكير فيما حدث.. ومع تردده الكثير على الحبشة كان يستمع ويجادل ثم يتأمل مفكرا فى كل ما يقال هناك عن رسالة التوحيد فى بلاد العرب.. حتى سأله النجاشى يوما: كيف لم يؤمن بمحمد ويتبعه وهو رسول الله حقا؟! ويركب عمرو ظهر البحر عائدا إلى بلاده ومتوجها مباشرة إلى المدينة لمبايعة الرسول ﷺ.. ومن سيرته بعد إسلامه أنه كان يتعبد ويتصدق ويستغفر من ذنوب وقع فيها..

....

....

إن رواة التاريخ يحدثوننا عن المواهب العقلية والخلقية التى اشتهر بها عمرو بن العاص.. وقد يتزايد الرواة كثيرا فى أحاديث الدهاء، وعلة المصلحة الذاتية، وما بينهما من بواطن الأهواء والبواعث الخفية، وكأن كل أعمال البشر يجب أن تقاس بمقاييس المثل العليا!! ولكن الرأى الذى لا شك فيه، هو ما يقول به الفاروق عمر بن الخطاب، قوى البديهة، وكانت عبقريته كاشفة لمعادن وقدرات ومواهب الرجال، وقد أوجز لنا قدرات ومواهب "ابن العاص" فى واقعة، ورأى.. أما الواقعة فكانت

مع الفتوحات الإسلامية ومواجهة القوى العظمى حينئذ ـ الفرس والروم ـ وأرسل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب الصحابى الجليل عمر بن العاص إلى الشام، فقيل لأمير المؤمنين : إن على رأس جيوش الروم بالشام (أرطبونا) أى أميرا من الشجعان الدهاة.. فقال عمر رضي الله عنه لقد رمينا أرطبون الروم، بأرطبون العرب، فلننتظر عم تنفرج الأمور.. وكان النصر حليفا لجيش المسلمين بقيادة داهية العرب ابن العاص، وهرب داهية الروم مهزوما إلى مصر.. أما الرأى الغالب، والذى يتردد على لسان الفاروق عمر، حينما يرى إنسانا عاجزا الحيلة.. فيقول متعجبا: "سبحان الله.. إن خالق هذا، وخالق عمرو بن العاص، إله واحد!!"..

وكان هذا فى بعض ما يروى عن رجل صاحب مواقف تألق فيها الذكاء والدهاء وسعة الحيلة، دهاء من الطراز الأول كما يقول العقاد، فالدهاء عند العرب كان مزية، وضرورة، وكفؤ للشجاعة.. وإذا كانت قدرة عمرو بن العاص تتلخص فى خلائق مشهورة، وأشهرها الدهاء، دهاء الطموح المغامر، دهاء يعتمد على قدرة عقلية فائقة، فقد سخر مواهبه لنصرة دينه، ونشر راية الإسلام، قائدا من قادة الإسلام بالغ الجرأة، مقداما، أمينا فى تحمل مسئولية الأمانة، وقد اختاره رسول الله واليا على عمان، واختاره الفاروق عمر واليا على بادية الشام (فلسطين والأردن) ثم واليا على مصر، والتى حررها من حكم الرومان فى العام ٢٠ من الهجرة الموافق ١٣ أغسطس ٦٤١ ميلادية، وقد أبلى بلاءه المشهود أمام حصن "بابليون".. ودهاء "عمرو" سلاح هجوم ودفاع، دهاء فى اقتحام، ويكفى أن ينسب إليه تحقيق نبوءة الرسول الكريم "ستفتح عليكم بعدى مصر" وأن يبدأ بعدها الطريق الواضح المستقيم

لنشر الإسلام فى شمال إفريقيا وصولا إلى حدود فرنسا..

ولكن موازين الحكم على الصحابى الجليل، قد اختلت، وأصابتها العصبية حينا، وأقاويل النهازين حينا آخر، أو رؤية البعض للعبة السياسة والمنافع فيما حدث مع رحلة النزاع بين على ومعاوية بعد مقتل عثمان، وقامت الحرب بين طائفتين من المسلمين، وقد مضت موقعة "الجمل" وجاءت موقعة "صفين" وكان عمرو قد اختار طريقه إلى جوار معاوية.. ومع هذه الوقائع والمشاهد كان رواة التاريخ بين اختلاط الأمر، واشتباك المنافع، واختلاف الأهواء، وربما جادل البعض فى دهاء عمرو حين حلت الهزيمة بجيش معاوية فى وقعة "صفين" فاقترح حيلة المصاحف، فرفعوها فى اليوم التالى، ونادوا بالتحكيم إلى كتاب الله، فاختلف جند على، واضطر أمام اختلافهم إلى قبول التحكيم.. واتفاق عمرو بن العاص مع أبى موسى الأشعرى على أن يخلع كل منهما عليا ومعاوية، ليرجع الأمر شورى بين المسلمين، فأنفذ "أبو موسى" الاتفاق، وقعد عن إنفاذه عمرو!!

....

وإذا تحرينا الإنصاف للحقيقة التاريخية والحقيقة الإنسانية، فإن موازين الحكم يجب ألا تغفل النوازع البشرية، وليس فى وسع عمرو أن يتجرد من بواعث النفس البشرية لو أراد.. اعتزازه بتفوقه، وحبه للإماره، وإن كان حبه للإمارة لم يحمله يوما على التفريط فى مسؤولياته، كان باعتزازه بنفسه، يعتقد أنه خلق ليكون أميرا، ولا شىء فى الدنيا كان قادرا أن يشغله عن هذا الذى خلق له، وهذه الخليقة الغالبة عليه قد تفسر انحيازه لمعاوية ابن أبى سفيان، وهو ما يتفق مع ما رواه

البعض بأن عمرو استشار ولديه عبد الله ومحمدا فيما يقرره من موقف.. وقال عمرو: إنى إن أتيت عليا يقول لى : إنما أنت رجل من المسلمين، وإن أتيت معاوية يخلطنى بنفسه ويشركنى فى أمره!! وقيل أيضا : أن معاوية ساوم عمرو على رضاه، فلم يقنع بما دون ولاية مصر مدى الحياة، وبعد أن عزله عثمان بن عفان!! هل هى إذن لعبة السياسة والمنافع، وقد برزت حين ظهرت الفتنة، ثم قيام الدولة الأموية بعد عصر الخلافة، وقد كان قيامها حادثا جللا فى تاريخ الإسلام!!

. . . .

ومهما اختلفت الآراء فإن كلمات ابن العاص فى لحظات الرحيل تكشف عن الكثير. قال: كنت أول أمرى كافرا، وكنت أشد الناس على رسول الله ﷺ، فلو مت يومئذ لوجبت لى النار، ثم بايعت رسول الله ﷺ، فما كان فى الناس أحد أحب إلى منه، ولا أجل فى عينى منه، ولم أكن أقدر أن أملأ عينى منه إجلالا له، ثم بليت بعد ذلك بالسلطان، وبأشياء لا أدرى أهى لى أم على.. وفى السنة الثالثة والأربعين من الهجرة أدركت الوفاة "عمرو بن العاص " . . صحابى جليل من أولئك الرجال حول الرسول ﷺ ، هم أئمة المسلمين حتى يرث الله الأرض ومن عليها.